بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا بحث فى تاريخ الأدب العربى، بل هو بالأحرى بحث فى الأدب وتاريخه، لأننى قصدت إلى الوقوف فى بعض مباحثه مع النص الأدبى فى قراءة فنية ودراسة تحليلية.

وأحب أن أشير فى البداية إلى أن البحث فى الأدب وتاريخه إنما هو بحث فى فرع هام من فروع الحضارة، لأن القضية كما يقول العلامة الفرنسى لانسون[1] عن دراسة الأدب وتاريخه: «نحن ندرس تاريخ النفس الإنسانية والحضارة القومية فى مظاهرها الأدبية، وفى تلك المظاهر قبل كل شىء، ونحن إنما نحاول دائما أن نصل إلى حركة الأفكار والحياة خلال الأسلوب».

ومن منطلق أننا ندرس الأسلوب، فنحن ندرس إذن فرعًا من فروع الفنون الجميلة التى أساسها ومظهرها توزيع اللغة فى علاقات جمالية ذات أبعاد دلالية وإيحائية جديدة.

وأحب أن أضيف فى هذا السياق أيضًا أن تاريخ الأدب ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أنه يُمثِّل مادة حية للعلوم الاجتماعية، ووجهة النظر عندى أننا فى دراستنا للأدب وتاريخه نتناول بالضرورة التاريخ والفلسفة والأخلاق والاجتماع والعمران، وفى أدبنا العربى بالذات نتناول فروع الدراسات الإسلامية فى شتى أبعادها وتأثيراتها، ومعلوم أن اللغة ووسائل التعبير المختلفة بها لا سيما فى مستوياتها الجمالية الابداعية هى التى تشكل مادة الدراسة الأدبية ومنطلقاتها، والعلوم اللغوية تُصَنَّفُ اليوم ضمن العلوم الاجتماعية وهذا يعنى أن دراسة

(١) منهج البحث فى الأدب واللغة ترجمة د. محمد مندور، ط١٩٤٦، بيروت.

الأدب فى بعض مستوياتها وعلائقها تتصل أقوى الاتصال بفروع الدراسات الاجتماعية، على أن الدراسات الاجتماعية بفروعها الحديثة تُدْخل الأدب كنشاط اجتماعى فى دائرة مباحثها: «علم الاجتماع الأدبى».

وإذن فدارس الأدب وتاريخه يدرس فرعًا هامًا من فروع الحضارة الإنسانية وفرعا من فروع الفنون الجمالية - بل لعله أقواها على الإطلاق نظرًا لتيمنه التعبيرية فى استخدام الكلمة - وفرعًا من فروع العلوم الاجتماعية فى مظهره كنشاط إنسانى، وفى المؤثرات التى تغذيه، وفى المواد التى يصورها، وفى اللغة التى تحتويه.

ومع ذلك فإن لدراسة الأدب وتاريخه مميزات وسمات خاصة تفرق بينه وبين التاريخ العام والفنون الأخرى، وكذلك العلوم الاجتماعية المتعددة.

إننا على سبيل المثال فى دراسة الأدب وتاريخه ينبغى أن نلاحظ أمورًا هامة منها:

أننا حين ندرس الأدب إنما نحاول فهم النفس البشرية فى عصر ما وبيئة ما، ونحاول أن نصل إلى طبيعة الحياة الفكرية والشعورية من خلال فهمنا وتحليلنا لأعمال فنية - مع الوقف على كل العوامل الفعَّالة فيها - وحتى نكون صالحين لهذا النوع من الدراسة فلابد أن نكون نحن أنفسنا فى حالة تسمح بالإحساس بمزايا وظلال وإيحاءات هذا العمل الفنى وذلك مع الإحاطة بأدق الفروق بينها، وقد يكون للعمل الفنى موضوع الدراسة قدرة محدودة على لبقاء حيًّا فى نفوسنا حتى اليوم، وقد يكون فاقد القيمة بعد عصره، لكنه ما يزال صالحاً للدلالة الحقة على عصره الذى مضى، وهذا أمر يُكلِّفُ الباحث جهدًا خاصاً فى الفهم والإحساس حتى يكون فى حالة صالحة للفهم والتذوق والتحليل والاستنباط، ولابد له قبل الوصول إلى ذلك من دراسة مفردات شتّى تتصل بعصره ومؤلفه وأمته ومجتمعه إلى آخر ما هو معروف لممارسى الدراسات الأدبية.

وأشير هنا بعناية إلى أن المواد التفسيرية فى دراسة الأدب وفهمه وتحليله

وتذوقه لها قوانينها العلمية فى أخذ ما هو مطلوب منها دون تجاوز فى حقل الدراسة الأدبية؛ بحيث تصبح مادة مفيدة فى تحليل المادة الأدبية، وقد شرحت ذلك بتفصيل فى أكثر من موضع فى كتابى «مصطفى لطفى المنفلوطى.. الجزء الثالث»[1] وقلت ضمن ما قلت هناك: «ونؤكد أن اختيار الجوانب التفسيرية ليس على إطلاقه، بل هو اختيار تحكمه معيارية واعية محورها أن يكون ذلك الاختيار مسخرا لفهم البنية الفنية للنص...»

ومع أنى لا أسلّم بقبول الهجوم على الانتفاع بالمواد التفسيرية، فإنى أعترف بوجود تجاوزات فى استخدام المواد التفسيرية، أو قصور فى الاهتداء الحق لأخذ ما هو مطلوب منها وترك ماسواه، وذلك فى جوهره أمر يتصل بملكات الباحث وطبيعة تأهيله العلمى والفنى، ومدى خبرته ودربته فى مجال عمله العلمى.

وليس شعار النصيّة أو نحو النص Text Grammar وكل ما طرحته علينا البنيوية والأسلوبية ليس مقبولا فى رفض المواد التفسيريّه، بل إن المقولات البنيوية فى بعض جوانبها عدوان على العربية وتراثها بشتى شعابه.

إن المواد التفسيرية تمثل جزءًا هاما من أدوات الجراح فى إجراء جراحته الفنية، وتمثل قبل ذلك جملة حقائق فى الاهتداء إلى تشخيص الحالة وتحديد نوع الجراحة المطلوبة لها. وقد حددنا على نحو بيّن موقفنا من ذلك كله فى كتابنا الذى سبقت الإحالة عليه.

وكما يقول العلامة لا نسون[2]: «التاريخ الأدبى يحاول أن يصل إلى الوقائع العامة وأن يميز الوقائع الدالة، ثم يوضح العلاقة بين الوقائع العامة والوقائع الدالة... وموضوع التاريخ هو الماضى، ماضٍ لم تبق منه إلا أمارات أو أنقاض بواسطتها يعاد بعثه، وموضوعنا نحن (أى تاريخ الأدب) هو الماضى ولكنه ماضٍ باقٍ فالأدب من الماضى ومن الحاضر معًا».

---

(١) راجع المقدمة ص(ع - د) وص٣٣ - ٤٠، وانظر الإحالات الواردة بالهوامش.

(٢) منهج البحث فى الأدب واللغة ترجمة د. محمد مندور ص١٩ - ٢٠.

فإذا انتقلنا إلى دراسة الشخصيات الأدبية فإننا أيضًا نكون أمام مهمة متشعبة الجوانب، فالأديب كما هو ابن عصره ومجتمعه وظروفه، فهو هدف لتأثيرات الماضي في الحاضر، وصدى لتطلعات الحاضر للمستقبل. وكما يقول لانسون[1] : «فأكثر الكتّاب أصالة هو إلى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة، وبؤرة للتيارات المعاصرة، وثلاثة أرباعه مُكَوّن من غير ذاته فلكي نميّزه... لابد من أن نفصل عنه كمية كبيرة من العناصر الغريبة، يجب أن نعرف ذلك الماضي الممتد فيه، وذلك الحاضر الذي تسرب إليه... ولابد لكي ندرك كيْفه وعمقه الحقيقيين من أن نراه يعمل وينمي نشاطه، أي لابد من أن نتتبع تأثير الكاتب في الحياة الأدبية والاجتماعية، ومن ثم تأتي دراسة الواقع العام وفنون الأدب وتيارات الأفكار، وحالات الذوق والإحساس التي تملي نفسها علينا وقد أحاطت بكبار الكتاب وعيون المؤلفات».

من هذه الإشارات المركزة تصبح الدراسات الأدبية فيما يتصل بالأدب وتاريخه هما من هموم الدراسات الشاقة، ولكنها عميقة الأثر في قيادة النهضات الفكرية والقومية، وترقية الذوق والإحساس، وإثراء المعرفة بتجارب البشرية وتزويدها بحكمة الحياة وبصيرة الرقي بالإنسان لأنها أولاً وأخيرًا تزيدنا بصرًا ومعرفة بالحياة والإنسان. من خلال فن الكلمة في شتى مكوناتها الإبداعية وتأثيراتها الجمالية.

وهذا الكتاب الذي أقدمه اليوم ترجع قصته إلى ما قبل ظهوره في طبعته الأولى سنة ١٩٨٣ بخمس سنوات حيث سعدت بالعمل في السودان بجامعة أم درمان الإسلامية - والجامعات الأخرى هناك - ابتداءً من صيف ١٩٧٦. وكنت أدرّس تاريخ الأدب الحديث، وتاريخ الأدب الجاهلي. وهما فرعان كنت قد أخرجت فيهما خمسة مؤلفات من قبل وسادسًا في ثلاثة أجزاء لم يكن قد طبع آنذاك. وكانت خطتي العلمية مع نفسي أن أسعى إلى مدارسة الأدب العباسي فهو الحلقة الذهبية في تاريخ الأدب العربي، وهو المملكة المترامية

(١) السابق ص ٢٣ - ٢٤.

الأطراف ذات العوالم المبهرة، العامرة بشتى صنوف العجائب من العظائم والصغائر ولابد لمؤرخ الأدب العربى أن يكون على وعى تام بها، لا سيما وأن تأثيرها مستمر فى أدبنا الحديث، والحاجة إلى هذا الأدب ماسة فى مدارسة اللغة وآدابها وفروع الدراسات الإسلامية والتاريخية.

ثم لاحت لى فرصة طيبة وهى أن زملائى وأصدقائى من الإخوة الأساتذة السودانيين بكلية البنات بجامعة أم درمان الإسلامية رغبوا إلىّ أن أقوم بتدريس مادة الأدب العباسى وتاريخه، وكانت معرفتى إذ ذاك بهذا الفرع معرفة غير متخصصة على النحو الذى يجرى به العمل فى الجامعات، ولكنى استرحت إلى الفكرة وسعدت بها، لأن فيها ما يحملنى حملاً على مواصلة الجهد وبذل العناء لتفادى هذا النقص عندى من جهة، ولإرضاء رغبة علمية وفنية ملحة فى أعماق من جهة أخرى.

وبقيت هناك أَدرس وأُدَرِّسُ هذه المادة ثلاثة أعوام، ثم جئت إلى القاهرة فقمت بتدريسها عامين بكليتى الحبيبة كلية دار العلوم. وعندما بدأت تدريس المادة بالسودان كنت أُدرِّسُ فى الأسبوع الواحد أربع ساعات منها ساعتان (قاعة بحث) وعدد الطالبات حوالى الثلاثين، فأعطيت كلّ طالبة شخصية أو موضوعًا، وكان الاتجاه إلى دراسة الشخصيات أكثر فى البداية، وبالضرورة اتجهت إلى اعتبار كل بحث من هذه البحوث الثلاثين إنما هو بحث شخصىّ لى، وأعطيتُ وقتى وجهدى للنهوض بهذا الدور الشاق علىّ المحبب إلىّ.

ثم كان من ثمرة هذه المدارسة والدراسة بالسودان والقاهرة هذا الكتاب، وكان لابد عند إخراجه أن أُحدد وأختار ما أُريد فكل مؤلف لا يؤلِّف من أجل أن يقول كل ما يعرف أو بعض ما يعرف، بل يؤلف لحاجة علمية يحسها ويراها، وكانت مهمة التخطيط والاختيار شاقة لأن تاريخ الأدب العباسى حافل بدراسات عديدة متنوعة لأساتذة كبار أجلاء تصبح السباحة بعدهم عبثًا لا طائل من ورائه.

ولكن من منطلق دراستى للأدب ذاته ومن وقوفى المروّى مع بحوث أساتذتى

الأجلاء وزملا الأفاضل. وانتفاعى بها، كانت لى رؤية وموقف، وفهم وتحليل لبعض القضايا، وكثير من التفصيلات المتصلة بها، لا سيما فى دراسة لشعر والشعراء وما يتعلق بذلك من قضايا علمية أو تاريخية أو فنية.

ثم وجدتنى فى حالة وجْد فنّى كالشاعر الذى يجد نفسه مضطرًا للإفضاء بقصيدة فى تجربة ألحت عليه، فوجدت حينئذ أنه من الخير لى أن أدلى بدلوى مع الدلاء لعلنى أزيد ولو على نحوٍ مَا حصيلة الماء الناتجة من البئر. وقد حرَصت دائمًا على أن أدل على مواطن إفادتى واهتدائى بالبحوث السابقة، وفى مواضع متعددة كانت لى رؤية، وكانت لى آراء ومناقشات، وقد وزعت الكتاب على قسمين:

القسم الأول: يتناول «الحياة العباسية نموها وتطورها، وازدهار الأدب فيها» وهو يشمل عدة مباحث:

المبحث الأول: «مشكلة التقسيم للعصر العباسى» وفيه عرض ومناقشات للآراء والتصورات التى سبقت فى هذه القضية، ثم اختيار وتحديد لمفهوم التقسيم المراد.

المبحث الثانى: «نقطة التحول من العلويين إلى العباسيين».

المبحث الثالث: «ملامح عامة عن الخلافة والخلفاء» وهو ليس عرضًا تاريخيًا بقدر ما هو اختيارات واقتباسات ذات دلالة فى فهم شخصيات الخلفاء، والمشكلات التى أحاطت بهم؛ توطئة لفهم النهضة الأدبية فى فتراتها المختلفة، وقد ناقش هذا المبحث بعض المشكلات والقضايا ذات المغزى التاريخى مثل: «محنة البرامكة».

المبحث الرابع: «التجديد والتطور فى العصر العباسى» وهو يُعْنى بالحديث عن النمو الاجتماعى الذى تم فى هذا العصر، وكذلك التطور الثقافى والنهضة العلمية.

المبحث الخامس: وموضوعه «أبرز سمات النهضة الأدبية فى العصر العباسى» وهو يشمل الحديث عن ملامح الحياة الأدبية قبل قيام الدولة العباسية، ولغة الشعر بين التراث والتجديد فى العصر العباسى، ثم تحديد السمات الفنية التى أثمرتها الحياة الثقافية والعقلية لدى الشعراء العباسيين، وهنا وصل البحث إلى ما يوازى أقل من خمس حجمه فى الدراسة ومساحة الصفحات (١٥-١٠٥) وقيمة هذا التحديد الدلالة على أن الدراسة التاريخية والسمات الفنية العامة للعصر لم تتجاوز دورها فى مساحة البحث، ولكنها كانت وسيلة مقصودة لغاية محددة.

القسم الثانى: وموضوعه: «الشعر والشعراء» ويشمل المباحث التالية:

المبحث الأول: «اتجاهات الشعر العباسى وأطواره إلى أبى الطيب المتنبى» وقد قصدت بذلك تحديد الاتجاهات ابتداءً من بشار بن برد وانتهاءً بأبى الطيب المتنبى، وأخذت من كل اتجاه أبرز زعمائه.

المبحث الثانى: «ثلاثة من شعراء الاتجاه التجديدى المحدث» وهم: بشار بن برد، وأبو نواس، وأبو العتاهية. ويمكن القول بأننى درست هؤلاء الشعراء دراسة فاحصة انتهيت خلالها إلى تقديم وجهات نظر متعددة أقل ما توصف به أنها تثرى البحث الأدبى وتدعمه، وتبعد به عن الدوران فى أسلوب التطريز على ثياب قديمة، بمعنى أننى صدَرْتُ فيما قدمته عن فهم، وتذوق وتقدير.

المبحث الثالث: «ثلاثة من شعراء الاتجاه إلى التعميق والإثراء الفنى» وهم أبو تمام، والبحترى، وابن الرومى.

المبحث الرابع: «شاعر التأصيل للقيم الفنية فى الشعر العربى. أبو الطيب المتنبى».

وهناك ملاحظة خاصة بدراسة الشعراء وهى أننى لم أضع خطة موحدة

لدراسة كل الشعراء أى أننى لم ألجأ إلى قوالب معدّة من قبل، ولكننى كنت أتناول بالدرس من كل شاعر ما هو خليق به ودال عليه، ومن ثم فقد أطلت فى دراسة بعض الشخصيات، وتناولت جوانب وقضايا لم أتجه إليها فى شعراء آخرين، ولكنى دائمًا توصلت إلى إعطاء صورة مرضية عن كل شاعر من الزاوية التى ارْتَأَيْتُ أنها تهمّ البحث.

ويلاحظ بصفة أساسية أننى اجتهدت فى توثيق المادة العلمية لهذا البحث، لم أدخر فى ذلك وسعًا بل أحيانًا تزيدت فى ذلك. وكنت أذكر فى هوامش الصفحات اسم الكتاب مع النص على طبعته فى مرات متعددة، مع أنه يكفى النص على ذلك فى المرة الأولى من ذكر الكتاب، وتُدَّخَرُ التفصيلات مرة أخرى لفهرس المراجع، ولكن نظرًا لرغبتى فى تيسير الأمر على القارئ الباحث من جهة ولضرورة فنية من جهة أخرى لجأت إلى هذا التكرار فى النص على الطبعات. والضرورة الفنية سببها أن الكتاب الواحد كنت أرجع إليه فى طبعات متعددة، فالطبعة التى رجعت إليها بالسودان غير التى رجعت إليها فى مكتبة الكلية أو الجامعة أو دار الكتب القومية وقد تكون غير التى وُفِّقْتُ لاقتنائها، وأحيانًا يكون الخبر أو النص فى طبعة وليس فى أخرى.

وأخيرًا فإن إخراج المؤلف لكتابه يعّرضه دائمًا لموقف لا يستطيع تخطيه، وهو أنه عند تصحيح تجارب الطبع يقرأ من الذاكرة، ولا يستطيع إحصاءَ جميع الأخطاء لتداركها، ومن ثم أرجو القارئ الكريم أن يتجاوز عنها والأمر متروك لفطنته وكريم معرفته، خاصة وأننا أصبحنا فى زمن التقدم الفنى الذى لا يسمح فيه للمؤلف أن يُغيّر ما يرى ضرورة تغييره أثناء مراجعته لتجارب الطباعة، لأن ذلك يترتب عليه كثير من الشطط الفنى والتكاليف المادية، وصاحب الكتاب ما يزال ينكر على نفسه كلما نظر فيه، ومن أبلغ صفات الإنسان النقص وحسبه صدق المحاولة.

وبعد فأبرز ميزات هذا الكتاب أنه جهد متواضع، ولكنه صادق، وأنه رأى ولكنه مثقل بالتأنى والمراجعة، وأنه اجتهاد يدفعه الإخلاص وحب العلم وابتغاءُ

وجه الله. فإن كنت قد وفقت فبفضل الله أولاً وأخيرًا، وإن كانت الأخرى فمن هفوات نفسي وقصور طاقتي، وسبحان من له الكمال وحده والحمد لله على ما أعان ووفق وهو سبحانه المستعان.

القاهرة في ١٩٨٦/٢/٢١

المؤلف

opeikandl.com